جيوفانى بوكاشيو

للسيدة الفاضلة ماهرة النقشبندى

١٣١٣ — ١٣٧٥

ولد جيوفانى بوكاشيو فى باريس عام ١٣١٣، حينما كان والده فى زيارة لتلك المدينة فى مهمة تجارية . فقد أحب الوالد فتاة فرنسية تدعى « جان »، وكان جيوفانى ثمرة هذا الحب الجامح ، ولم يعرف من حنان هذه الأم أو ذكرياتها سوى بعض الحروف المتشابهة التى يحملها اسمه من اسمها ، إذ عاد به والده إلى فلورنسا بعد سنة من ولادته ، وتزوج مباشرة بفتاة اسمها « مرغريتا » ولدت له ولداً شرعياً سماه « فرنسسكو » . لقد كانت طفولته خالية من الحنان والرحمة والرعاية ، فعاشت فى نفسه الفضة المالى الإنسانية فى الحياة لأنه لم يشعر بها ، وهذا يفسر من ناحية نفسية قسوته الشديدة وتهكمه المرير وعبثه بالفضائل المعنوية التى يعلم أن البشر لا يعرفونها أبداً ، فى قصصه ، وفى الأشخاص الذين تتصل بهم تلك القصص من قريب أو بعيد .

وقد قضى وقتاً غير يسير من طفولته فى تسكانيا ، ووقتاً فى مسقط رأس والده ، وحيناً فى ضواحى فلورنسا ، وخاصة فى التلال حول فيزول ، حيث كتب كتابه العظيم « دى كامرون » وأعماله الأدبية الأخرى . وأرسله أبوه إلى « نابولى » وهو لا يزال شاباً فى الحادية والعشرين من عمره ليتعلم مهنة تكون عوناً له على حياته المقبلة . وهناك فى تلك المدينة الساحرة ، التى صبيحة يوم السبت — المقدس فى كنيسة القديس لورنزو — فيامينا الابنة غير الشرعية للملك روبرت ملك نابولى الملقب « بالعاقل » ، فأحبها من النظرة الأولى حباً ملك عليه قلبه وحياته وجعله مسلوب اللب لا يعيش إلا لأجلها مدة اثنتى عشرة سنة ، حتى ماتت عام ١٣٤٨ فى الوباء المعروف فى التاريخ الأوربى بالموت الأسود .

كان حبه يشابه فى شدته حب بترارك للورا ، وقد أوحى إليه هذا الوله العنيف جميع أعماله الأدبية الأولى ، ومن بينها أول قصة سيكولوجية فى التاريخ سماها « فياميتا المحبوبة » .

وظهر ميله الأدبى المبكر وهو فى نابولى ، فرأى والده أن يوافق على رغبته فى تعلم القانون ، وأن يترك ما كان فيه ، ولكن إفلاس والده المالى ، وعودته مضطراً إلى فلورنسا عام ١٣٤١ ، أعاده إلى الأدب وحال بينه وبين المضى فى دراسة القانون .

وبدأ فى نابولى آثاراً أدبية أتمها فى فلورنسا منها « فيلوكولو » و « فيلوستراتو » و « تسيد » ؛ وزاد على تلك الآثار « اميتو » و « فياميتا » و « نتفال فينسالانو » . وعاد بعد ذلك إلى نابولى — أما فياميتا ، فقد كان قلبها يخفق بحب غيره حتى قبل مغادرته نابولى . والمعتقد أنها توفيت سنة ١٣٤٨ فى وباء الموت الأسود المروع الذى يعتبر نهاية العصور الوسيطة فى التاريخ ، فقد أهلك ثلاثة من كل خمسة أشخاص فى فلورنسا ونابولى وغيرهما بقاع أوربا وانجلترا ، فكان موتها ضربة ألمية لقلبه المعذب . وقد خلدها فى الفصل الأول الذى يفتتح به كتابه العظيم « دى كامرون » إذ يعترف أن هذا الحب هو الذى دفعه إلى كتابة هذا الأثر الخالد ، وفى القصص التى كتبها سابقاً يعود إليها فصلا فصلا ، فيشيع فى جوها حب فياميتا واللوعة على فراقها والحنين إليها —

لقد كان حبه لفياميتا الأساس لجميع أعماله الأدبية ، حتى رأى بترارك فنشأت بينهما مودة متبادلة كانت عوناً له على تناسى بعض آلامه وعلى شفاء بعض الجراح العميقة التى سببها موتها .

لقد مات الحس المرهف فى خياله ، وخبا النور الذى كان يشرق على بصيرته فى شمس الحب ، فتبلد حسه ، وتحجرت عواطفه ، وانتهت أجمل فترة من فترات الإلهام ، فكتب بعد « دى كامرون » كتابه « كاربا كشيو » وهو مجموعة من الهجاء المقذع ما رأته امة من الامات ، صب جام غضبه فيه على الدنيا التى حرمته الحب وعذبته بقسوتها ...

ثم هدأت الثورة قليلا فى عواطفه ، ومال من تلقاء نفسه وبتشجيع من صديقه بترارك إلى نوع من الاستقرار وتناسى الماضى ، فأخذ يدرس الآداب اللاتينية والإغريقية ، وكتب كتابه « تاريخ حياة دانتى » ، وأهدى نسخة من « الكوميديا الإلهية » إلى صديقه بترارك ، وأهدى إليه بترارك فى مقابل ذلك مجموعة خطية من إلياذة هوميروس .

لقد رأى بترارك للمرة الأولى فى ربيع عام ١٣٥١ فى مدينة

بادوا ، حيث ذهب إليه يرحب به باسم مدينة فلورنسا ليعود من منفاه . فشاهد حماسه الشديد للآداب الكلاسيكية أو الدراسات المقدسة ، وعدم رضاه عن الأدب الإيطالي ، وقد كان لذلك ، لسوء الحظ الأثر الفعال في نفس بوكاشيو ، فترك العناية بالأدب المعاصر ، وقصر مجهوده الأدبي على دراسة آداب اللغة اللاتينية وكل ما يتصل بها .

لقد كان بوكاشيو أديباً أصيلا ، وفناناً مبدعاً ، وفلتة نادرة من فلتات الذكاء التي تراها الإنسانية في سيرها الطويل في فترات متباعدة جداً ، وفي أشخاص تخلقهم القدرة المبدعة لعمل يحمله الزمن إلى ذروة الخلود . لقد خلق في كتابه « دي كامرون » عالماً جميلا يموج بالحركة والإحساس العميق . فهو يجلس في عالم الخلود الأدبي إلى جانب دانتي وشكسبير . وقلما عرف التاريخ الأدبي فناناً مرهف الحس يجمع إلى فنه علماً غزيراً وجلداً على دراسات مضنية تتطلب صبراً جميلا . ليس في مقدورنا أن نزعم أن بوكاشيو كان من هذا الطراز النادر ، كما أنه ليس من الإنصاف أن نبخس مؤلفاته في اللغة اللاتينية حقها من التقدير ، فقد كانت دائرة معارف الأدباء ومعجمهم في أوائل عصر النهضة ، وهو وإن لم يبذل في تأليفها أكثر من مجهود الجمع والترتيب ، كان بجلده الرائع وصبره وأناته الوحيد الذي حفظ للعالم قصائد هوميروس .

إن إيطاليا وأوربا مدينتان لبوكاشيو بحفظ آثار أعظم شاعر تفخر به الأجيال ... لقد بذل بتراك مجهوداً في جمع تلك القصائد التي لم يكن في مقدور أحد في أوربا قراءتها في اللغة اليونانية ، ولكن بوكاشيو هو الذي أخذ تلك القصائد وراح يراجعها كلمة كلمة ويعيد كتابتها مستعيناً بليون بلاتوس الذي كان يلفظ له حروف الكلمات اليونانية ، وبذلك تمكن بوكاشيو من ترجمتها بأسرها إلى اللسان اللاتيني .

كانت حياته الخاصة سلسلة من الآلام والعذاب ، ولم يكن يخفف من قسوتها عليه غير العطف الذي كان يغمره به بتراك وزيارته لأسرة هذا الصديق . كان معدماً ينغص عليه الحياة القاسية خوف وتشاؤم من الموت ومن المصير المجهول في العالم الآخر ، ذلك الخوف الذي استطاع بتراك أن يخفف شيئاً من وقعه عليه ويهدئ قليلا من سواد أفكاره . كان مهملا في زمانه لا يعرف أحداً . وابتسم الحظ له في أخريات أيامه ، فاختير لملء أول كرسي في جامعة فلورنسا أسس باسم دانتي ، وكأنما جاء تكريم دانتي في الوقت المناسب لتخفيف وطأة الفقر ، وراح يحاضر عن « الكوميديا الإلهية » ويدافع عن شعر دانتي ، ذلك الشعر الذي أحبه وتعصب له حتى مع صديقه بتراك . وألقى محاضرته الأولى في شهر تشرين الأول من عام ١٣٧٣ ، وكان في الستين من عمره ، واستمر يحاضر حتى بلغ النشيد السابع عشر من الجحيم في الكوميديا الإلهية ، فداهمه مرض شديد أقعده عن العمل ، وبقي يعاني سكرات الموت حتى اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الأول سنة ١٣٧٦ ، فأراحه الموت من عذاب الحياة بعد أن ذاق حسرة موت صديقه بتراك في صيف ١٣٧٤ .

***

لقد ذكرنا فيما مضى أن جميع ما كتبه بوكاشيو في اللغة الإيطالية كان من وحي فياميتا التي أحبها ، ففي الصفحات الأولى من كتابه « دي كامرون » نرى أنه لم ينس حب تلك الفتاة بعد أن كتب عنها — أو متأثراً بها — ستة مؤلفات نثرية ، فافتتح ذلك الكتاب العظيم بالإشارة إليها دون أن يذكر اسمها ، وختمه بنفس الطريقة والأسلوب . إن جميع الأسماء التي قص على لسانها في كتابه مائة قصة في عشرة أيام خيالية محضة ما عدا اسمها « فياميتا » . أما بوكاشيو ، فإنك لا تجد له ظلا في تلك القصص المائة . إن العجب ليأخذ الناقد الحصيف وهو يرسل رأيه ويتأمل كتابه الخالد « دي كامرون » الذي يمثل نبوغه وعبوقه وتساعه الكثير وعبقريته العميقة للإنسانية ، إذ يجده على النقيض في مؤلفاته الأخرى التي كتبها باللغة الإيطالية الدارجة ، لا يعبر كما عبرت من حوادث حياته الخاصة ، وآرائه في الحياة وحبه وكرهه وسخطه .

إننا نتلاقى مع بوكاشيو في هذا الكتاب مرة أو مرتين ، ولكن في غير القصص التي يبدو ناعساً جداً في حوادثها وأشخاصها ورسم أهدافها .

إن تصميمه الفني لهذه القصص يدل على فن أصيل وعبقرية فذة وذكاء مفرط ، استطاع أن يشيع فيها عالماً تضطرم فيه الحياة بكل ما فيها من أحزان ومسرات ، وظواهر وأسرار . لقد نفذ

بعبقريته الفذة إلى ما وراء مظاهر الأشياء ، نفذ إلى أسرار النفس الإنسانية فصور أفراحها وأحزانها ، صفحها وانتقامها ، رحمها وحقدها ، كرمها وبخلها ، تصويراً عميقاً شاملاً ، لم تشذ عنه النفس ، ولم يتوار عنه ضمير ؛ فكان بذلك « شكسبير » عظيم الأثر في عصره ، وفي العصور التي تلها فبر الزمن من بعده ، يقرأها المرء فيجد فيها وصفاً لما يضطرم بين جنبيه من ألم وعذاب ، وسرح وسرور ، في أي عصر كان ، وهذا عمل العباقرة الخالدين !

إن كتاب ألف ليلة وليلة يتوارى خجلا أمام دى كامرون إذا وضعا في ميزان التقدير وتحت ضوء النقد . إن كتاب ألف ليلة وليلة لا يقوم في مجموعه إلا على ملك مستبد يقتل زوجاته لألم في نفسه من النساء ، وعلى شهرزاد الفتاة الأدبية التي تقص عليه تلك القصص ، ولا تهدف إلى غاية غير استبعاد الكارثة وإطالة أمد المقاومة والتعلق بآمال الغيب ، لعل المعجزة تتم فتنجو بحياتها ، ولكن هذا القلق لا يلبث أن يتلاشى رويداً رويداً من نفسها بحكم ما تثيره قصصها من اللذة في نفس الملك شهريار . أما دى كامرون ، فتقوم حوادثه على ثلاثة من الفتيان وسبع من الفتيات ولوّا هاربين إلى مسفوح تلال الفيزول من الموت الذي أباد مدناً بأسرها ... يروون تلك القصص تناسياً للآلام وتواريا خلفها من خيال الموت !

تعتبر مقدمة اليوم الأول من قطع الوصف الخالدة في الآداب الإنسانية عامة صور فيها مدينة فلورنسا في قبضة الوباء المهلك عام ١٣٤٨ وقد أقفرت شوارعها من الحركة وتكدست الجثث هنا وهناك وقد فاحت منها الروائح المنكرة ، تصويراً لا يلحقه فيه لاحق ... صور ذلك الصمت الشامل الذي يغشى المدينة فلا يسمع فيها غير قهقهات خافتة من بقايا أجساد حطمت الكارثة كل ما فيها من حس إنساني وشعور نبيل ، وغير مجموعات أخرى تتحرك وقد خولطت عقولها وعبث بها الرعب فغدت كأشباح الموتى .

وفي صبيحة يوم من أيام الثلاثاء تلاقت في الصلاة سبع فتيات في كنيسة القديسة ماريا فلورنسا ، فاقترحت عليهن كبراهن بامبينا أن يرافقنها إلى الريف هرباً من الموت ، حيث يعشن في أحضان الطبيعة ، في قصر رحيق لإحداهن عيشة الفضيلة والانقطاع عن الناس فلا تصل إليهن يد الموت . وتشاء المصادفات أن يدخل الكنيسة في تلك اللحظة ثلاثة شبان يتصل أكبرهم ببامبينا بصلة القرابة ، فاقترحت عليهم الانضمام إليهن فوافقوا مغتبطين .

وفي فجر اليوم التالي كانوا في طريقهم إلى ذلك الريف ، فاستقر بهم النوى في قصر جميل وارته الأشجار وقامت على جوانبه الحدائق الوارفة . واقترحت بامبينا أيضاً أن يختاروا في كل يوم رئيساً عليهم يكلون إليه أمرهم بحيث يكون كل منهم مسؤولاً بدوره . وتم انتخاب بامبينا في اليوم الأول فوضعوا على رأسها أكليلاً من أغصان شجر الغار . وبعد غروب الشمس أخذوا طريقهم إلى حقل غطى العشب الأخضر أرضه ... وهنالك جلسوا في دائرة وطلبت بامبينا ملكة ذلك اليوم أن يقص كل واحد قصة في كل يوم ، وقد رأوا في اقتراحها طرافة فوافقوا عليه ... وتلفتت بامبينا إلى بامفيلو الذي كان يجلس على يمينها وأمرته أن يبتدىء بقصة ، وهكذا تأخذ هذه القصص طريقها إلى الوجود .

من هذا النوع من التصميم تتبع قصص بوكاشيو في دى كامرون ، وهي تشابه قصص ألف ليلة وليلة في بقاء القاصين في مكان واحد في حقل العشب الأخضر في تلال الفيزول ، وفي غرفة الملك شهريار في بغداد . وهو جهود يضفي على قصص الكتابين لوناً من الكسل والخمول . أما قصص كانتباري فتشوبها فتتسم بالحركة والنشاط والحياة ، فالحجاج الذين يقصون القصص لهم سمات الأحياء تميزهم وتتعرف شخصياتهم في سهولة ويسر .

والضعف الذي نلمسه في قصص ديكامرون حين نقارنها بقصص كانتباري لا يتصل بالخطوط الرئيسية في بنائها وإنما يتصل في الأشخاص . فأشخاص قصص كانتباري يتحركون فيمثلون الحياة الاجتماعية الإنجليزية في القرن الرابع عشر ، لكل منهم شخصيته مستقلة واضحة المعالم . أما أشخاص بوكاشيو فليس في المقدور تمييز الواحد عن الآخر . وليس هنالك فارق بين لورنا وفيلومينا ، وربما حسبناهما ديونيو أو فيلستراتو . أما فياميتا أقوى أشخاصه فإننا لا نراها وإنما نستمع إليه يصف جمالها وذكرياتها ويقحمها في مجال القصص من وقت إلى آخر .

(البقية في العدد القادم)

عاشرة النفشبندي